مقرُّ النفس عند القدماء

الغدَّة الصنوبرية

لا يستصعب طالب علم التشريح درس قسم من اقسام الجسد مثل درس الدماغ لكثرة ما فيهِ من الاختلاط والارتباط والاجزاء والتفصيل حتى شبَّههُ بعضهم بحاصلٍ حوى ما كبر وصغر من الآلات والعدد والادوات والصناديق والمصنعات والمجوَّفات. ومن اغرب ما تقع عليهِ العين هنَّة صغيرة في باطن الدماغ متصلة بهِ من قاعدتها مستقرَّة على هنات اكبر منها تسمَّى بالاجسام الرباعيَّة ومغطاةٌ بجوهر الدماغ من كل جانب صنوبرية الشكل ولذلك تُعرَف بالغدة الصنوبريَّة. قال علماء التشريح في وصفها انها جسم صغير سنجابي اللون ضارب الى الحمرة مخروطيُّ الشكل كثير الصنوبر طولهُ اربعة خطوط وعرضهُ عند قاعدتهِ خطَّان او ثلاثة كثير الاوعية الدموية معظمهُ مؤلف من الجوهر السنجابي الذي يتكوَّن ظاهر الدماغ منهُ وقليلهُ من الجوهر الابيض الذي يتألف باطن الدماغ منهُ وفي قاعدتهِ تجويف صغير يتضمن سائلاً لزجًا شفافًا وقد يحتوي مادة رمليَّة ومادة حيوانية بسيرة. ويقال انهُ في الصغار اكبر منهُ في البالغين وفي الاناث اكبر منهُ في الذكور. الى غير ذلك مما نضرب عنهُ صفحًا خوف الاطالة على غير طائل

وكأن الشرحين القدماء نظروا الى شكل هذه الغدة الصنوبرية ومشابهتها لما بين ايديهم من الاوعية ثم اعتبروا وضعها في باطن الدماغ واحاطتهِ بها من كل جانب فانزلوها منهُ منزلة الحبَّة من القلب او الحدقة من العين وجعلوها مقرَّ النفس ومركزًا للعقل الذي بهِ يسمو الانسان على سائر الحيوان. وجرى بعدهم كثيرون على هذا الزعم ولا يبعد انهم دققوا البحث والتنقيب فيها املاً بان يعرفوا عن النفس ما لا يعرفون حتى جاء المتأخرون وافسدوا زعمهم واثبتوا ان النفس تفعل افعالها بكل جزء من اجزاء الدماغ وليست مخصرة في الغدَّة الصنوبرية. بل زاد المدققون فحققوا انهُ ليس للناس علاقة بهذه الغدَّة مطلقًا اذ لم يروا لها وظيفة من الوظائف. ومن ذلك الحين بقي العلماء في حيرة من امر هذه الغدة لا يعلمون كيف وُجدت ولا لاية غاية خلقت. ولولا الحقائق التي كشفها العلَّامة دارون صاحب مذهب التحوُّل والارتقاء لبقي امرها مجهولاً عندهم الى ما شاء الله. اما الآن فقد استلم العلماء مقاليد الطبيعة التي القاها اليهم زميلهم دارون فكل يوم يجلون سرًّا من اسرارها او يحلون لغزًا من الغازها. ومن جملة ما كشفوهُ منذ زمان يسير حقيقة الغدَّة الصنوبرية التي نحن بصددها

فقد تبيّن لهم انها عضوٌ اثريٌّ او بقية عين كانت في بعض الحيوانات الرخوة في قديم الازمان ثم طرأ عليها الحَرَض والفساد فضعفت عن الابصار شيئًا فشيئًا في اعقاب تلك الحيوانات حتى ضمرت وساخت ولم يبقَ منها غير الغدّة التي وصفناها في الانسان وما قرب منه من انواع الحيوان . فان قلت كيف علمنا ذلك ونحن لا نرى الآن غير الغدّة الصنوبرية . فلنا علم ذلك من مقابلة هذه الغدّة في الانسان بما هي في غيره من الحيوان ويعرف ذلك عند العلماء بتشريح المقابلة . فيه وجدوا ان هذه الغدة تكون في كل حيوان لبون مغطاة بالمخ وهو الجزء المقدّم من الدماغ وعضوُ الادراك والتعقل . واما في الزحافات مثل الافاعي والسلاحف والضفادع والضباب فالمخ منقلص عنها لانها اقل نموًّا من مخ ذوات الثدي . فاذا نزعنا المجمجمة عن الدماغ في ذوات الثدي لا نرى الغدّة الصنوبرية الاّ بعدما نرفع المخ عنها واما اذا نزعناها في الزحافات فنرى الغدة الصنوبرية مكشوفة وموقعها تحت الدرز الجداري — وبعبارة اخرى تحت اليافوخ حيث يكون الراس ليّناً في المولودين حديثاً لعدم تعظم المجمجمة هناك . فتقلص المخ عن الغدّة الصنوبرية في الزحافات ووقوعها تحت اليافوخ يدلُّ على انها اقرب فيها الى النور مما هي فينا وفي غيرنا من

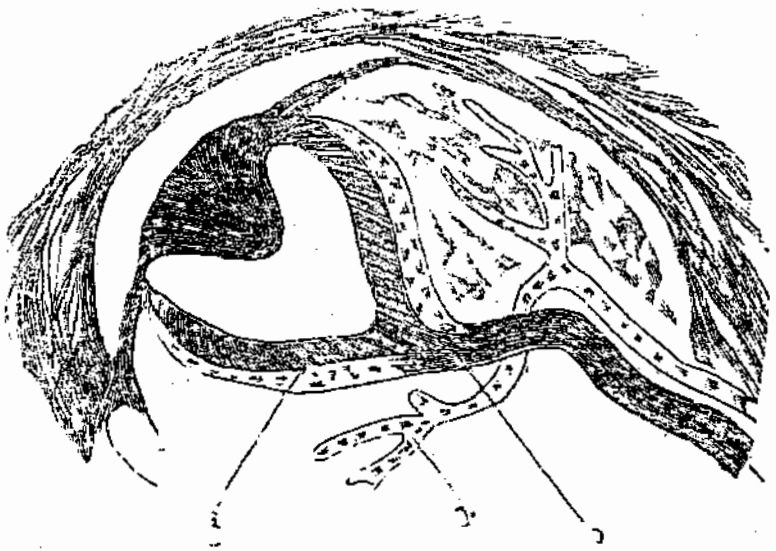

صورة العين الصنوبرية في الزحاف المعروف بالماتيريا — ا
العصب البصري . ب وعاء دموي . س الشبكية . د عصبها وخاريطها

ذوات الثدي . وزد على ذلك ان شكلها وتركيبها يختلفان في كثير من الزحافات عما هما فينا فقد تبيّن العلماء انها مركبة تركيب العيون المبصرة في زحاف يُعرَف اسمهُ عندهم بالهاتيريا وآخر

بالاوريليا حيث هي عبارة عن كتلة عصبيّة بصريّة كالشبكيّة يتّصل بها عصب بصري و يتوزّع فيها اوعية دموية لتغذيتها (كما ترى في الشكل السابق) فكونها كالشبكيّة واتصالها بعصب بصري وتوزع الاوعية الدموية فيها — كل ذلك يدلّ دلالةً قاطعةً على انها عين تتأثر بالنور تأثر العيون المبصرة لو كان النور يصيبها . ولكن حال دونها ودونهُ حائل صفيق عند اليافوخ فمنعها من الرؤية . فالغدّة الصنوبريّة في هذين الزحافين مركبة تركيب العيون المبصرة ولا يمنعها من الرؤية الاّ وجودها ضمن جمجمة الزحاف تحت اليافوخ . واغرب من ذلك انهم وجدوها مركبة تركيب العيون ايضاً في نوع من الضب يعرف عندهم بالثارانوس الكبير وفوقها في الجمجمة نشرةٌ شفّافة يضاء ينفذها النور ولكن يحول بينها وبين النشرة مادّة ملوّنة تمنع نفوذ النور اليها فلذلك لا تبصر

فتبيّن مما تقدم ان الغدّة الصنوبرية هي في بعض الزحافات عين حقيقية ولكن لا تبصر لحيلولة جسم مظلم بينها و بين النور فيمنعها من الرؤية . وهي مع ذلك موضوعة داخل جمجمة الزحّاف . وهذا يشاهد في الزحافات الموجودة واما الزحافات التي انقرضت و بادت فيظهر من بقاياها ان الغدة الصنوبرية — اوهذه العين الخفيّة — كانت موجودةً فيها خارج الجمجمة لا داخلها بدليل انثقاب العظم الجداري (عند اليافوخ) ووجود آثار العضلات التي كانت متدغدغة ومرتبطة بحافات الثقب . ولاعتبارات كثيرة ليس هذا محلّ ايرادها يحكم العلماء ان الحيوانات التي يكون لها عيون مبصرة بتلك الاوصاف ليست من ذوات الفقار بل من عديمات الفقار اي من الحيوانات الرخوة كالاخطبوط ونحوه

والخلاصة اننا اذا قابلنا الحيوانات بعضها ببعض وجدنا ان ما يطابق الغدة الصنوبرية فينا وفي سائر ذوات الثدي جسم مركب تركيب العيون المبصرة في غيرها . وهذه العيون متفاوتة في كمال التركيب والمناسبة للابصار . فاذا نقول في حقيقة الغدّة الصنوبرية . أنقول انها كذا خُلقت فينا وكذا خُلقت في غيرنا وليس بينها ادنى اتصال . هذا قولٌ لا يقبله احدٌ من اهل العلم والعقل كما انه لا يقبل ناحٍ قول الكسائيّ في أيّ لما لم تخطر له علّة تقديم عاملها عليها واستقبالهِ "ايٌّ كذا خُلقت" ولو فُرض ان واحدًا قبل هذا القول لما كان فيهِ اقلُّ فائدةٍ لانه بمثابة قولنا ان الغدّة الصنوبرية هي الغدة الصنوبرية فنحكي بذلك مَن شبّه الماء بعد الجهد بالماء

أم نقول ان الغدة الصنوبرية وُجِدَت في ذوات الثدي كثمر الصنوبر وفي الزحافات كالعيون لا لتقضي وظيفةً ولا لتفيد مَن هي فيهِ فائدةً بل لتمام نظام الخلق ولاستكمال مناسبة التكوين في المخلوقات حتى يرى الانسان ان صانعها صنعها كلها على مثال واحد فخلق عينًا

مبصرة في الحيوانات التي تحتاج اليها وعيناً عمياء في الحيوانات التي لا تحتاج اليها وغدةً صغيرة ضامرة في الحيوانات الأخرى التي لا تحتاج اليها ايضاً. هذا قول جماعة من الادباء والشعراء وامثالهم واما جمهور العلماء فيرفضونهُ لكثرة ما عليهِ من الاعتراضات. من ذلك انهُ لماذا خُلقت اذاً عيناً عمياء في البعض وغدةً ضامرة في البعض الآخر مع عدم احتياج الفريقين اليها. ومن ذلك انهُ لماذا خُلقت فيها متناوبة في كمال التركيب على التدريج من عينٍ تكاد تبصر الى غدةٍ لا تصلح للابصار على الاطلاق. ومن ذلك انهُ اذا صحَّ هذا التعليل في الغدة الصنوبرية لا يصحُّ في غيرها من الاعضاء الاثرية التي تكون موجودة في بعض الاحياء وغير موجودة في البعض الآخر او تكون نافعة في بعضها ومضرَّة في البعض الآخر الى غير ذلك

أم نقول ان الغدَّة الصنوبرية اصلها عين مبصرة في الحيوانات الدنيا القديمة العهد. ثم ضعفت شيئاً فشيئاً لتغيُّر التركيب والظروف وقلَّة الاستعمال في اعقاب تلك الحيوانات. وما زالت تضعف وتضمر بتوالي الاعقاب وتغيُّر تركيبها وهيئاتها وطبائعها حتى صارت عيوناً عمياء في الاعقاب التي تحوَّلت الى زحافات وغدداً ضامرة مختلفة عنها كل الاختلاف في الاعقاب التي تحوَّلت الى ذوات ثدي مثل السباع والمواشي والبشر. فبهذا القول تتضح حقيقة الغدَّة الصنوبرية اتضاحاً علمياً وبدونهِ لا تتضح كذلك. ولهذا التعليل ونحوهِ من التعليلات الكثيرة التي لا تتضح حقائق الامور الاَّ بها ترى العلماء يقرّرون مذهب التحوُّل ويبسطونهُ ليقرّبوهُ من الافهام ويجلوا عنهُ غياهب الاوهام

ايها الغنيُّ تحذَّر

قيل لحكيم مَن اقرب الناس الى الهلاكة فقال مَن قصُرَ نظرهُ في العواقب واكتفى بالعاجل عن الآجل. وما أحرى هذا القول ان يردّد على مسامع شاب من اهل المشرق اورثهُ الله غنًى واسعاً وما لاً طائلاً وبلغنا ان بعض العقلاء كلَّمهُ في ما هو صلاح حالهِ وخير بني جنسهِ فذكَّرهُ بالفضيلة ووجوب الأخذ بناصرها والوطنيَّة ووجوب الوفاء بعهودها والهيئة الاجتماعية ولزوم السعي في ترقيتها وتحسين حالتها فاجابهُ بما ملخصهُ. امَّا الفضيلة فاسمٌ بلا مسمًّى لا يخبر الاَّ الآخذ بناصرها فما ترك جائع طعاماً لآخر الاَّ قال عنهُ الناس مجنون وما حرم احدٌ نفسهُ من اللذات لنفع غيرهِ الاَّ اكلوهُ وقالوا عنهُ قليل العقل والخير بصالح نفسهِ ينعم ويلذُّ ولا يبالي بالفاظ